ساعات السحر

للدكتور أحمد زكي بك

هذا نموذج ناضج لأدب المقالة الدسمة ذات الموضوع الخصب. فليست هذه المقالات من هذا الطراز الذى كل هدفه إظهار المحصول اللغوى ولا شيء وراء هذا لضآلة موضوعها وفجاجته، ولا هى من هذا النمط المتهافت الأسلوب العامى الأداء.

ولكن ماهى السمات التى تطبع أدب الدكتور زكى بك؟ فالمقالة قد تتحد فى جودة الأسلوب، ودسامة الموضوع، ثم هى تختلف فى لباب الفكرة؛ وتتباين فى جوهر الموضوع، فهناك المقالة العاطفية التى تستمد فيضها من شاعرية الوجدان؛ وهناك المقالة التى تأخذ سندها من الدراسات النفسية أو الاجتماعية؛ والمقالة التى تتخذ المنطق وسيلتها؛ والمقالة التى تستوحى روح العلم وتسير بوحى من هداه. ومن هذا الطراز مقالات هذا الكتاب. والذى أعنيه بروح العلم هو استشفاف روحه؛ واصطناع أساليبه فى البحث؛ فهو لا يسبح بك فى تلك الأجواء المزيج من النور والظلام، أجواء الصوفية الوجدانية، ولا يلح الحاح أصحاب المنطق وعشاق التفلسف، بل أنت معه فى ضوء العلم ووضوحه، واناته ووزانته. وليس معنى هذا أنه يدخل بك فى ميدان العلم وجفاف موضوعيتـــه؛ كلا، بل هو يستوعب ويتشرب روح الموضوع عن طريق فكره، ثم يأخذ فى التفنن والابداع الفنى فى تصوير معانيه وتجسيدها وابرازها واشاعة الحياة فى كل ما يعرض؛ فإذا هى قطع فنية من حيث العرض والتصوير علمية من حيث اعتمادها على دعائم الفكر. فإذا قيل أن بعض الكتاب يؤدب الفلسفة، وبعضهم يفلسف الأدب فالدكتور زكى بك يعلم الأدب ويؤدب العلم؛ لأنه قد وفق فى تطعيم الأدب بروح العلم، أو فى عرض العلم بحيوية الفن وجاذبيته. هذه هى السمات التى تطبع تلك المقالات التى جمعها الدكتور زكى فى كتابه الأخير (ساعات السحر) فأنظر كيف يتناول موضوع الشباب فيلم به من جميع أطرافه فى مقاله (يعجبنى الشباب إذا) فيقول: «يعجبنى الشباب إذا هو تأنق وترقق فى غير أنوثة. فيعجبنى فيه الوجه الطليق النظيف والشعر الممشوط، فتلك زينة خليقة بابن آدم. ومع هذا فهو عند العمل يخلع التأنق وينبوعن الترقق، فإن كان العمل زيتا أو فحما انغمس فى الفحم والزيت ولم يشح بوجهه عن الأعفرة» ويصور دور الشباب فى تحمل المسؤولية الانسانية فيقول: «يعجبنى الشباب إذا أدرك أن الصبا عهد متعة وكذلك عهد تحصيل. أما المتعة فلأن الشباب أقدر على متعه وأحس للذته، وكل لذة عنده جديدة، وعمره بعد ذلك كعمر الورد قصير. وأما الدرس فلأن الدرس متعة الانسان لنفسه، وعلى عمده يقيم بناء مستقبله، ومستقبله إذا ساء بكى عليه، وبكى وحده، وبكى حين لا ينفع بكاء. ثم لأن الدرس حصة الانسان فى مواصلة المدنية ووفاء بمسؤولية للقبيل واللامة والجيل» وعلى هذا النسق من اتزان الفكر وعمقه وطلاوة العرض ودقته يقدم مقالاته عامة ومقالات هذا الكتاب خاصة.

محمد عبد الحليم أبو زيد

ملائكة وشياطين

للشاعر عبد الوهاب البياتى

ظل الشعر فى العراق أقرب فنون الأدب إلى العراقيين ... ذلك لأنه قريب من ذلك المزاج العربى الأصيل الذى حفل بالشعر وجعله معبرا عن عواطفه واحساسه.

وجاءت دوافع السياسة، وبواعث الحرية والاستقلال فى أوائل القرن العشرين فأصبح الشعر معبراً عن آلام الملايين وأحلامهم، موقظاً الحماس، راسماً لهم الطريق السوى للانتصار

فى معركة الحرية، فرأينا موجة الشعر السياسى التى درسها صديق الاستاذ ابراهيم الوائلى ، ممثلة الثلاثة الأعلام من الشعراء العراقيين الكاظمى ، والرصافى، والزهاوى .. فطغى على سائر أغراض الشعر

وظل الشعر السياسى فى المقام الأول بعد الثورة العراقية ، وإنشاء الحكومة الوطنية ، ذلك لأن العراقيين الطامحين إلى حكومة مستقلة تمام الاستقلال ، لم يرضوا بحكم تسيره يد خفية وتوجهه وفق مصالحها وأهدافها الخاصة ، فضج الشعراء بالشكوى وناضلوا ضد طغيان الحكومات وتدخل الدخلاء ، واضطراب الحياة الدستورية .. وما زال بين الشعراء العراقيين من يترصد الحوادث على مسرح الحياة السياسية ليعبر عن رأيه شعرا !

ولا تظنن أن العراق إتصل بالثقافة الغربية ، والحضارة الأوربية منذ أمد بعيد ؛ فالظاهر أن حوادث السياسة ، وتناحر الناس ، ونضالهم لتأسيس نظام حكومى متقن صرفهم عن التطلع إلى تلك الآفاق البعيدة فى محيط الغرب . غير أن الحرب العالمية الثانية اضطرتهم إضطرارا إلى الوقوف على تلك العوالم الجديدة فى الفكر والثقافة وأمور الحياة . ففتح الجيل الحاضر عينيه على بيئة قاسية على نفسه ، بيئة يترا كم فى أرجائها تراث عظيم من التقاليد الشرقية المحافظة . وهو بعد ذلك يسمع ويقرأ مما عبر إليه من أحاديث الغرب وأدبه فأيقظ فى نفسه ذلك الهيام العاطفى إلى الآفاق الرحبة ، والآماد البعيدة ، وثارت نفسه على تلك البيئة التى لم تحترم هواه ، ولم تقس عن آمانى نفسه .

فنشأ عندنا الشعر المتطلق فى تعبيره ، المتطلق فى إحساسه. وهو بعد أثر من آثار الكبت العاطفى ، والحرمان الطويل . . ولا يكلفك التنقيب عن ذلك مشقة . فسأحدثك عن شاعر شاب يمثل تلك الفئة وهو الشاعر الشاب عبد الوهاب البياتى .

وأول ما يبهجنى أن ديوان الشاعر يعطيك صورة واضحة لنفسه . صورة تكون لك الشخصية الفنية فى أروع صورة ، وادق ملامح ، وأرهف تعبيراً .

فالشاعر المنعزل لاتفوتك صورته وهو فى محراب العزلة حاملاً على عاتقه رفات أحلامه ، وأوراقاً يابسة من آماله وأمانيه :

يا قلب ماذا ! ... كل لحن مات فى فيثارتى
اليأس والأوهام والحلم الوجيع ودمعتى
حتى خيالات الجنون تنفست فى عزلتى
ولهاثها المسموم أمطار تسيل بظلمتى

هذا اليأس المرير ، والنغم الباكى يلاحظان فى كل قصيدة من قصائد الديوان .

وفى كل قصيدة من قصائده تجد هذه العناصر مجتمعة : أسى ومرارة وحرمانا وطعماً ولهمه روحيه وصيحاً بالواقع ، وخيالا تخلقه تلك النفس التواقة إلى الحرية . حتى حبه الذى يطالعنا به الديوان خيال، وحبيبته فكرة بلورتها تلك اللهفة الظامئة إنظر إليه كيف يصور محبوبته فى قصيدة بعنوان « إليها »

فكرة أنت جسمت أشواقى ... وأضاءت بنورها أعماقى
واستجمت من قبل ميلاد فكرى ... فى خيال الطبيعة الخلاق
صورة أنت من قديم الزمان ... رسمتها مدامع الحرمان
وشعاع الخلود أضفى عليها ... رائعات الظلال والألوان

فالحب عنده تلك اللهفة الى المجهول ، وذلك الشوق الهائم إلى الصدر الحنون والقلب الرءوم، والنفس الحادية التى تفيض ظلالها العذبة على الشباب المحزون . والديوان كله لا يعطيك صورة لا مرأة بعينها بحيث تحس بكيانها المميز ، وشخصيتها الواضحة . بل هى فكرة من الفكر .. أو عاطفة من عواطف الشاعر الظامئ إلى صورة مثالية تتكون ملامحها من الرقة العذبة ، والحنان الوريف . تنبت كالواحة الوارفة الظلال فى صحراء مجدبة من الحنان والحب!!

فهذا الحرمان الواضح فى الديوان مد الشاعر بقوة على الخلق الفنى الممتاز ، وأرهف حسه ، وجعله يهيم فى عوالم من خياله ، وانسراح عاطفته! ... وفى الديوان رحلات جميلة فى عالم الشعور... رحلات الحالم المنزوى بصومعة من أحلامه :

وما ذلك الحالم المنزوى ... بصومعة الفكر إلا خيال
يحس بصوت الحياة البغيض ... ينادبه فى قسوة أن تعال
فيمعن فى حلمه ساخراً ... بأطيافها الشاحبات الثقال
بعزلة قيل عنها : الشروق ... بأفكوهة قيل عنها: الزوال!

وأغلب قصائد الديوان صور وهيا كل لصور بعضها موفق أعظم التوفيق لنقل الاحساس إليك . ولا تنتظر منى أن أنقل